



الشمس الى الفوطة لبيتاغ حليبه من ندي البقر مباشرة . « فاشعر انا نحو هذا الرجل بشيء من العطف والشفقة ، ولكن هذا الشعور ماليت ان تحول ذات يوم الى ا كبار واعجاب ، يوم رايت ابي يهب من فراشه كلما سمع صوت الحلاب ويخرج معي لمقابلته فيستطلع منه اخبار الثوار في الفوطة . كان يسأله اسئلة ذات بال ويحسب اني لا افقه ممسا يقولون شيئا . كان يقول له مثلا :

كيف حال الجماعة اليوم ؟

فيجيب ابو حامد وهو يكيل الحليب بصوت خافت ولهجة كلها ثقة : « بخير والحمدلله . المعنويات طيبة » ثم يهمس وعيناه تلمعان : « اليوم وصلت كمية كبيرة من السلاح . ولكن اه يا اسفي يا افندي . في معركة البارحة استشهد ثلاثة من اولاد الميدان وخمسة من اولاد الشاغور وسبعة من الفوطة . انا اعرفهم جميعا كل شب والله مثل النخلة ، ولكنهم قتلوا كثيرا من الفرنسيين . هؤلاء الشهداء يا افندي هم شباب اهل الجنة يا ليتني اصبح واحدا منهم . » ثم يمد يده الكتفاء ويقول : هذه اليد يا افندي احرق كيدي ، لو كانت سليمة قادرة على استعمال السلاح لكنت والله تركت العيال في رعاية الله والتخفت بالثورة لاجاهد في سبيل الله . ثم يردف قائلا باسف شديد :

« ولكن الله لم يشأ ان يكتب لي هذه السعادة » ثم يتحول الى باب جارنا ويصرخ « حليب ، حليب » ...

سمعت ذات يوم يقول لابي وهو يكيل الحليب كعادته :

هجم البرد يا فتدي ! اكثر الثوار يا حسرة ليس لديهم عبادات !! والنوم في البرية بلا عباة امر صعب . كان الله في عونهم .

ويهب ابي راسه في اسف دون ان ينبس بكلمة . ثم يدخل البيست ويتحدث مع ابي طويلا بصوت خافت . ويبدو على ابي انها كانت مهمة بالحديث اهتماما شديدا . واشعر برغبة ملحة لافهم ما يدور بينهما من حديث .

في المساء اخذت استرق السمع من خلف الباب فسمعت ابي تقول : طفت اليوم جميع بيوت جارنا فما تخلف بيت واحد عن الدفع ، الاغنياء والقراء على السواء . فاستطعت ان اجمع ثمن خمس وعشرين عباة اتدري ان ثمن العباة الواحدة سبع ذهاب ؟

ويقول ابي : « اعرف ذلك . الافضل ان تشتري انت العباة . حاولي ان تشتري من كل دكان عباة واحدة كي لا تلفتي اليك الانظار . فالفرنسيون يشنون الجوايسس والخونة في كل مكان ثم يقول :

ما كنت احسب ان تلك الذكرى المؤلمة ستظل قابعة في اعماق نفسي دائما ابدا ، حية لا تموت مهما بعد بها العهد . يثرها مرأى كوب من الحليب ، مجرد كوب صغير من الغذاء الذي عاقته نفسي منذ ما اصبح مرآه بيعت كوامن الاسي في قلبي ، كنت كلما وقع نظري عليه تمثل في خاطري ابو حامد يباع الحليب الجوال بقامته القميئة المائلة قليلا على وعاء الحليب المعلق على كنفه ، ثم سرواله الازرق وقد شد عليه زنارا احمر ، وارتدى فوقه ميتانا مخططا بالابيض والاسود ، وعينيه الصغيرتين اللامعتين تحت حاجبيه الكثيفين ، وقد التفح بكوفية بيضاء . ثم صوته الحنون وكأنه يرن في اذني الان وهو ينادي بنفمة ممطوطة : حليب ، حليب ...

كان الصوت يتناهي الي كل يوم وانا قابع في فراشي تحت اللحاف فيصلني خافتا عميقا عندما يكون ابو حامد قد وصل الى اول حارتنا الطويلة المنحدرة من ذيل فاسيون حتى حي الصالحية . ثم يبدأ الصوت يساو ويعلو ، وعندما يصل ابو حامد الى امام بيتنا كانت ساعتنا المجوز المثبتة على حائط الليوان ، والتي وعت جيلين او اكثر من اسرنا تبدأ دقاتها الرتيبة فتندق دقات متتابعات كانها والحلاب على ميعاد لا يتخلفان عنه ابدا . فاهب عندئذ من فراشي يدفعني نشاط سن العاشرة الذي كنت فيه ، واهبط الدرج راكضا فائر ضجة قوية توقف اهل البيت جميعا ثم اتناول ابريق الحليب من المطبخ لاملأه من الحلاب . كانت هذه هي الوظيفة التي اناطتها بي ابي كل يوم . وعندما افتح الباب كان يطالعني ابو حامد بابتسامته التي تصفي على وجهه طيبة وحنانا . ثم يكيل لسي ثلاث كيلات من الحليب . كانت عياني تستقران دائما بكثير من الفضول على يده الكتفاء التي تقلصت اصابعها و تجمعت في راحة الكف وننا الابهام كأنه قطعة خشب يابسة . كان يخطر لي دائما ان اسأله عن سبب عاهته تلك ، ولكن الخجل كان يفقد لساني عن الكلام . ثم يتحول ابو حامد الى باب جارنا ويصرخ : « حليب » بصوته النقوم فيفتح الباب فورا وتبرز منه صببة صغيرة شقراء في مثل عمري هي جارنا سنية فتحيني ضاحكة فاشعر ان الدنيا تضحك لي باسرها واظل واقفا انملى من وجهها الصبيح حتى يملأ لها ابو حامد الوعاء الذي بيدها فاذا اغلقت بابها انكفات انا الى داخل البيت وانا ارشف رشقات صغيرة من السائل اللذيذ . وهكذا كان يبدأ نهاري كل يوم بداية طيبة . فاذا تحلقنا حول المائدة اسمع ابي تقول وهي تصب لنا الحليب : ابو حامد حلاب ممتاز ، الله ببارك له ، صاحب ذمة ودين ، ومايفش الحليب ابدا ، فيرد ابي قائلا مكرين انه رجل طيب فقير وابو عيال يذهب كل يوم ماشيا قبل شروق

واحبيت ان اكلم لاويد كلام الكبير فاقول لهم :

اني رايت جثة الحلاب وهو ليس بنثر ، ولكن لساني لم سمعني بالنطق كانه قد بيس في حلقي ، وشعرت بحاجة ملحة الى البكاء لانفس عن صدري ولكن الدموع التي طفرت الى عيني انحبست في محجري وابت ان تسيل وكانها قد تجمعت كلها في حلقي .

اسرعت الى البيت فرايت امي جالسة على كنف اللبوان تبدو شاردة الذهن ترفا من حين لآخر دموعها المنهمرة . فوقفت امامها مرتاعا وسألتها بلهفة ابن ابي ؟؟ . قالت وهي تهدي صوتها المضطرب لنظمئني : ابوك سافر الى الضيعة وسيعود بعد ايام قليلة فاقتربت منها ونظرت في عينيها وقلت لها :

لماذا تخفين عني الحقيقة ؟ انني اعرف انه التحق بالثورة وتركنا في رعاية الله كما كان يتمنى ان يفعل ابو حامد الحلاب قبل ان يقتله الفرنسيون . فضممتني الى صدرها بعنف وقالت :

يا خبيت من اين تعرف كل هذا ، انك تتكلم مثل الكبار تماما اياك ان تذكر امام اي شخص كان ان اباك التحق بالثورة ، ولو درى الفرنسيون لهدموا بيتنا . قلت مرتاعا :

اهدمونه ونحن فيه ؟؟ قالت : يعملونها يا بني لقد هدموا كثيرا من الدور على رؤوس سكانها . فاخذت النطق في صدرها واوصالي نرعد من الخوف . كنت اشعر اني كبرت كثيرا ، وعرفت اشياء كثيرة ، الم ار الموت في ابشع مظاهره لاول مرة في حياتي ، الم اعرف الكثير عن فظاعة الفرنسيين ؟.

في تلك الليلة نمت نوما قلقا مضطربا ، كانت تقطعه احلام مخيفة رهيبة . كنت احيانا ارى جثة ابي ملطخة بالوحوول والدماء ملقاة في ساحة الشهداء الى جانب جثة الحلاب . فاصحو على صراخي المزعج فارى امي واقفة امام سريري تهدهدي وتسكن روعي حتى اهدا قليلا . فاذا عدت الى اغفاء بعد جهد طويل رايت بيتنا ينهار تحت قصف القنابل وانا وامي نتراكم من غرفة الى اخرى بين الدخان والغبار . ثم تعاودني رؤية الجثث ولكنها كانت هذه المرة لجنود فرنسيين اعرف بينهم ضابطهم الفرنسي اللثيم الذي كان يضحك بوقاحة وبشير بيده الى الجثث فاشعر بشيء من ارتياح الشمامة .

عندما بزغ الفجر كانت اعصابي قد تعبت تماما فاستسلمت لنوم عميق . ثم صحوت على صوت ناعم ندي ينادي في اعلى الحارة حليب حليب كانت له نفس النغمة المبطوة والجرس الحنون . ولكنه كان ينتهي بانه حزينة مرتجفة فعرفت الصوت حالا : انه صوت صديقي حامد الابن البكر للحلاب الشهيد . فعضضت شفتي من الغيظ ورحت اتخيل رفيقي المسكين المتفوق في مدرسته كيف هجرها قبل الاوان ووسع اماله الحلاوة ليعيل اسرته الكبيرة فخلع عن عاتقه مرغما محافظة الكتب لتحل محلها دبية الحليب التي ربما لازمته مدى حياته كما لازمت اباه من قبل . وتنهر من عيني دمعان ساختنان ومنذ ذلك الحين راح ينمو في اعماقي حقد كبير مرير .

الفة عمر باشا الادلبي

« اتدري ان ابا حامد تكفل بايصال العباءات الى الثوار معرضا نفسه للخطر ؟ » فنقول امي: انه صاحب مروءة ونخوة . ويرد ابي : سيأخذ كل يوم عباءة واحدة حتى لا بشير اي شبهة . ومنذ ذلك اليوم صار ابو حامد يمر على بيتنا كل مساء ثم يخرج منه وعلى منكبيه عباءة جديدة ثم يعود في الصباح وهو عار منها ليأخذ غيرها . وهكذا الى ان اختفت ذات يوم كومة العباءات التي كانت تختفي تحت سرير امي .

في صباح ذلك اليوم المشؤوم عندما دفت ساعتنا المعجوز دقانها الست لم اسمع صوت الحلاب الحنون كما هي العادة . فبقيت قابعا في فراشي اشعر بشيء من الغم والحزن حتى سمعت امي تناديني فقامت متكاسلا وتناولت فطوري دون كوب الحليب المفضل .

تساءلت امي قائلة :

ماذا جرى لابي حامد يا ترى ؟؟ ما كان ليتخلف عن المجيء ابدا .

ويرد ابي والقلق باد على وجهه : من بدري لعله مريض ؟؟ .

عندما انصرفت من المدرسة في اصيل ذلك اليوم بالذات رايت بعض التلاميذ قد تجمعوا في منعطف قريب وكانهم يتحدثون بامر خطير . فانخرطت بينهم وسمعت كبيرهم يقول : تعالوا يا اولاد نزل على المرجح نتفرج . يقولون ان الفرنسيين يعرضون فيها جثث الثوار الذين قتلوهم في معركة البارحة ، ويبدو الوجوم والجزع على وجوه الصبية ، ويقول بعضهم : لا تصدقوا ذلك ابدا . الفرنسيون يكذبون كثيرا ويقول الكبير تعالوا نر اذن . ويسير امامهم فيتبعونه دون اي اعتراض واجدنسي اتبعهم انا ايضا مأخوذا ذاهلا . كنت الاحظ ان الناس كانوا سيرون في ذلك اليوم عجلين منكسي الرؤوس يبدو على وجوههم الوجوم والانقباض. ولما وصلنا المرجح هالنا ما راينا . كانت خالية من المارة على غير عادتها كان الناس كانوا يتحاشون الرور بها فيحولون عنها طريقهم . وقد صفت حول النصب التذكاري القائم في وسطها جثث بشعة مشوهة ، ممزقة الثياب ، ملطخة بالوحوول والدماء . وكان بضعة جنود من الفرنسيين يعرسون الجثث، وكان ضابطهم ينظر الينا وبشير بيده الى الجثث وهو يضحك ويقول برطانة اعجمية نوار ، نوار .

لقد بدرت مني صيحة قوية عندما وقع نظري على جثة ابي حامد الحلاب بين الجثث . كانت سحنته قد نفرت كثيرا ولكني عرفته من البسته ومن يده الكنعاء وقد تمددت الى جانبه وكانها برهان فاطع يثبت ان صاحبها لم يشترك في معركة ، وهو عاجز عن استعمال السلاح فسي وجه الاعداء . وراح الصبية يتراجعون في صمت رهيب ، وكانهم قد شعروا بفداحة غلظتهم . كان يجب عليهم الا يأنوا نكاية بالفرنسيين كما يفعل الكبار . ولما ابتعدوا قليلا قال كبيرهم بصوت مرتجف خافت وقد بدا عليه الندم والخزي كانه هو المسؤول عن مجيئهم :

صدق من قال ان الفرنسيين كذابون ، ليس بين هؤلاء القتلى نائر واحد. انا اعرف الثوار ، كل هؤلاء من الفلاحين ، والمساكين والمعجزة» فهز الصبية رؤوسهم دون ان ينطقوا بكلمة واحدة . كانت وجوههم مصفرة كالحة ، كانها مكهربة وعينهم متسعة محمرة تحمق في كل شيء ، وافواههم مفتوحة يسرون واقدامهم تضرب ضربات مضطربة قوية كانهم رجال حاقدون .